الفصل الثالث عشر

المجاعة

أتم أبيض الناب عامه الأول، لكن لم يكن هناك من يهنئه بذكرى مولده، بل لم يعرف أحد أن مثل هذه الذكرى قد حانت. لكن أبيض الناب لم يلتفت إلى ذلك، فلم يكن ذلك بالشيء الذي يشغل بال الذئاب.

مضت حياته كما كانت عليه في السابق؛ فقد تجنب الاقتراب من الكلاب إلا وقت العمل في فريق المزلجة، وقضى جزءًا كبيرًا من وقته في العدو حول المخيم وبين الأشجار، واشترك في معارك عديدة، وطارده كثيرون من أهل الخيام بسبب السرقة، وكثيرًا ما ضربه جراي بيفر.

مع مرور الوقت أصبح سيده أكثر وضاعة من ذي قبل، إذ كان يستغل خوف الأشخاص من أبيض الناب. آثر الآخرون الابتعاد عنه. عضَّ أبيض الناب أطفالًا كثيرين، وأرهب بهريره نساء كثيرات. حتى الهنود الحمر في المخيمات الأخرى سمعوا بهذا الذئب، وأتى بعضهم لزيارة جراي بيفر كي يتمكنوا من رؤية أبيض الناب وجهًا لوجه. أما جراي بيفر فقد أصبح قبلة للمعجبين وكأنه ملك يجلس فوق عرشٍ، وكان أبيض الناب مملكته.

مضى عام آخر على النحو نفسه، وبلغ أبيض الناب عامين، ومرة أخرى لم يلحظ أحد ذلك أو يلتفت إليه. غير أن أيامه كانت لا تزال حافلة بالمعارك وبحماية ممتلكات جراي بيفر أو بتفادي الضربات التي تأتيه من سيده. كانت تلك حياة أبيض الناب، ولم يظن قط أنها ينبغي أن تكون مختلفة عن ذلك.

استمر الحال على هذا المنوال حتى كان في ذكرى مولد أبيض الناب الثالثة أن ذاق الجوع الحقيقي ثانيةً. ضربت «نورثلاند» مجاعة أخرى عانى منها الجميع. في تلك الأثناء لم تكن هناك أي أرانب في أي فخ من الفخاخ، وكانت الأسماك نادرة للغاية، بل لم

يكن هناك طعام كافٍ لإطعام أفراد القبيلة. لذلك رحلت كلاب عديدة، ومن بينها أبيض الناب، إلى البرية؛ فأمامها فرصة للاعتماد على نفسها داخل الغابة.

كان أبيض الناب مؤهلًا أكثر من غيره لهذه الحياة، فقد عرف الذئب الصغير الكثير عن الحياة في البرية. وهكذا سرعان ما عاد أدراجه إلى أنماط الحياة القديمة. مر على مناطق مألوفة، وزار أماكن قديمة. عثر على الكهف الذي اعتاد هو وأمه الحياة بداخله، وكذلك النهير الذي سقط فيه، وأخذ يتعقب الآثار القديمة وبحث في الأعشاش وجحور الأرانب في طريقه، لكن لم يكن هناك الكثير من الطعام.

عاش أبيض الناب أسابيع يتغذى على السناجب أو الطيور الصغيرة التي يعثر عليها بين الحين والحين، وفي أحد الأيام تمكن من اصطياد أرنب لكنه لم يسد جوعه الذي استمر أسابيع عدة. لم يتمكن من تذكر المجاعات السابقة. فعندما كان جروًا صغيرًا؛ كان أبواه يعثران له على الطعام، وقد حافظا على حياته في الوقت الذي مات فيه جميع إخوته. أما الآن بعد أن بات وحيدًا، أخذ يأسه يزداد يومًا بعد الآخر.

حاول العودة إلى معسكر الهنود الحمر، لكنه لم يتوغل فيه كثيرًا، تجول من طرف خفي حول الوجهة الخارجية من أرض المخيم يتشمم بقايا الطعام، لم يكن هناك الكثير من الطعام ليسرقه. كانت الغالبية العظمى من الفخاخ فارغة. عرف أبيض الناب أن اليأس والقلق قد وجدا طريقهما إلى قلوب الهنود الحمر أيضًا، وعرف كذلك أنه ليس لديهم الكثير لكي يقدمونه له. بحث عن فخاخ الأرانب التي كانوا ينصبونها؛ فعندما كان العيش رغدًا داخل أرض المخيم، جرت عادة أبيض الناب أن يغزو هذه الفخاخ وينقض على ما فيها من لحم الأرانب الطازج قبل أن يعثر عليها الرجال. لكن لم يكن هناك أي شيء الآن. عاد أبيض الناب أدراجه إلى الغابة فرحًا بأي طعام يمكنه العثور عليه.

أثناء هذه الفترة الطويلة التي قضاها أبيض الناب دون طعام، إذ به يلتقي مصادفة بالكلب ليب-ليب. كان الكلب الذي يكبر أبيض الناب سنًّا قد اتخذ هو الآخر من الغابة مأوى له، ولم يكن لقاؤهما متوقعًا قط. فأثناء سيرهما في اتجاهين متقابلين على طول قاعدة جرف صخري مرتفع، إذ بالاثنين يدوران حول جانب إحدى الصخور ويلتقيان وجهًا لوجه.

على الفور وقف الشعر الذي يغطي ظهر أبيض الناب، وزمجر وكشر عن أنيابه، ثم انقض على غريمه قبل أن تواتيه الفرصة للتفكير في ذلك الهجوم. لم تستغرق المعركة وقتًا طويلًا، فلم يكن ليب-ليب خبيرًا بحياة البرية مثلما كان الذئب، كما أنه لم يُوفَّق

في العثور على بعض فضلات الطعام، ولذلك لم يكن على الدرجة نفسها من القوة. في النهاية انتصر أبيض الناب في تلك المعركة، وبعد طول انتظار، حظي بوجبة شهية.

أخيرًا أصبح الصيد سهلًا، فقد عثر أبيض الناب على المزيد من الطعام في طريقه داخل البرية، وجرت عادته أن يأكل نصيبه ويترك ما تبقى للآخرين، وكانت هذه العادة أحد الأشياء التي علقت بذهنه من الدروس الأولى التي كانت أمها تلقنه إياها؛ فلا بد له أن يأكل ما يكفيه فقط.

بدأ أبيض الناب يعود أدراجه تجاه النهر دون أن يطيل التفكير فيما حدث. وانجرف مع ذكريات الفترة التي قضاها داخل البرية. وذات يوم وجد نفسه على مقربة من المخيم، وقد أضحى في تلك الأثناء مكانًا أكثر بهجة يجري فيه الأطفال ويضحكون ويُطهى فيه اللحم على النار. في هذه المرة دخل أبيض الناب إلى أرض المخيم على الفور.

رحب جراي بيفر بعودته بإيماءة. لم يتحدث إليه أو يعطه قطعة طازجة من اللحم، بل استمر في ترميم شباك الصيد، بينما جلس أبيض الناب إلى جواره. وهكذا عاد الاثنان إلى عاداتهما اليومية، وكأنهما لم يفترقا قط.